الفصل الثانى

الخلفية السياسية للحركة

عبد القادر ياسين

لم يكد المشهد يختلف على القسام فى فلسطين عنه فى سوريا. فضلًا على أن فلسطين قبل أن يجتزئها الاستعمار البريطانى كانت بمثابة «سوريا الجنوبية»، فإن كلا القطرين رزحا معًا تحت نير استعمار غربى؛ سوريا تحت استعمار فرنسى، أما فلسطين فكان الاستعمار البريطانى من نصيبها، والقطران وضعا تحت الانتداب، كل منهما تحت انتداب الدولة التى استعمرته. وإن كانت المقاومة صفعت الاحتلال الفرنسى، بمجرد تعديه على الأرض السورية، فيما توهم قطاع من أبناء النخبة الفلسطينية أن القوات البريطانية إنما أتت لتحرير البلاد من الحكم العثماني! لذا لم تواجه القوات البريطانية الغازية مقاومة، ووصل الأمر ببعض أبناء النخبة الفلسطينية أن شكلوا حزبًا للترحيب بالاستعمار البريطانى، وحمل الحزب اسم «الحزب العربى الموالى لبريطانيا» (٩/ ١٢/ ١٩١٧)، وحتى لا تنزعج فرنسا الاستعمارية عمد آخرون من أبناء النخبة الفلسطينية إلى تشكيل «الحزب العربى الموالى لفرنسا[١]»! على أن أيًا من الحزبين لم يمتد به العمر لأكثر من ثلاثة أشهر، تبخرت الأوهام خلالها بوعود الاستعمارين، الإنجليزى والفرنسى، بمنح الاستقلال لفلسطين ضمن الولايات التى كانت خاضعة للدولة العثمانية.

لأن حاكم القدس العسكرى، رونالد ستورز، كان يعادى اليهود فقد حث العرب الفلسطينيين على تشكيل مؤسستهم السياسية، ولكن على أساس طائفى أيضًا، وحملت المؤسسة الوليدة اسم «الجمعيات الإسلامية ـ المسيحية»[٢]، وضمَّت أعيان المدن من كبار الملاك أساسًا، وهى الطبقة التى احتكرت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية على مدى عشر سنوات متصلة، هى عمر المرحلة الأولى من تلك الحركة (١٩١٩-١٩٢٩).

فى ٢٥/ ٤/ ١٩٢٠ انتدب مؤتمر سان ريمو بريطانيا على فلسطين، فأنهت الأخيرة حكمها العسكرى لفلسطين، ووصل القطب الصهيونى البريطانى، هربرت صموئيل، إلى فلسطين، ليتولى منصب أول مندوب سام بريطانى على فلسطين، ولمدة خمس سنوات متصلة، وقد بذل صموئيل، ومعه النائبّ العام الصهيونى، نورمان بنتوبتش، قصارى جهدهما لتسهيل إقامة الوطن القومى اليهودى «فى فلسطين»، كما نص «وعد بلفور»، ومن بعده «صك الانتداب» الذى أصدرته «عصبة الأمم»، فى ٢٤ يوليو/ تموز ١٩٢٢[٣]، الأمر الذى أضفى على إجراءات الانتداب البريطانى وتشريعاته المحابية للصهاينة، فى فلسطين، طابعًا شرعيًّا.

عشية صدور قرار مؤتمر سان ريمو، بانتداب بريطانيا على فلسطين، انفجرت فى ٤/ ٤ ١٩٢٠، صدامات بين العرب واليهود، بمناسبة موسم النبى موسى، حيث يتجمع أهالى المدن الفلسطينية فى القدس قبل توجههم إلى موقع النبى موسى (نحو ٣٠كم شرقى القدس)[٤]. لم تكن الصدامات لأسباب طائفية، بل لأسباب وطنية، بعد أن اكتشف الشعب العربى الفلسطينى أن البريطانيين قد غدروا به ولم يبروا بوعدهم منح فلسطين الاستقلال بعد «تحريرها» من العثمانيين!

فى هذه الصدامات التى استمرت ثلاثة أيام متصلة سقط من الجانبين نحو ٢٥٠ إصابة، تسعة أعشارهم من الجانب اليهودى.[٥]

فى أول مايو/ أيار ١٩٢١ احتفل الشيوعيون اليهود فى تل أبيب بعيد العمال العالمى، ما أثار حفيظة الصهاينة هناك، ودفعهم إلى الاعتداء بالضرب على الشيوعيين المحتفلين، فما كان من الأخيرين إلا أن لاذوا بالمدينة الملاصقة لتل أبيب «يافا» وبالذات إلى حى المنشية الأقرب إلى تل أبيب. فظن أهالى ذاك الحى بأن اليهود الصهاينة يهاجمون حيَّهم، فتصدوا لهم[٦]، وكانت صدامات تأسست على سوء الفهم!

فى مارس/ آذار ١٩٢٤ احتفل الصهاينة بعيدهم الدينى «المساخر» وقصدوا ارتداء ملابس رجال الدين الإسلامى، ما أثار غضب المسلمين، فتصدوا للاحتفال اليهودى، وكانت صدامات عيد إستر(المساخر)[٧].

غنى عن القول أن كبار الملاك فرضوا على جماهير الحركة الوطنية الفلسطينية برنامجًا سياسيًّا عجيبًا، عادى اليهود كدين، ولاذ ببريطانيا باعتبارها الحَكَم. فضلًا على أشكال كفاحية متواضعة فرضها كبار الملاك، لا تتعدى المؤتمرات، والمذكرة، والوفد، المسيَّر حينًا إلى حكومة لندن، وأحيانا إلى المندوب السامى البريطانى فى القدس، للجأر بالشكوى وتسول حل ما!

فيما حرصت «الجمعيات الإسلامية - المسيحية» على عقد مؤتمر وطنى فلسطينى دورى، مرة كل عام، لكن صدمة كبار الملاك بفرض «عصبة الأمم» الانتداب البريطانى على فلسطين شل قيادة الحركة الوطنية، وأفقدها القدرة حتى على عقد المزيد من المؤتمرات الوطنية، بعد المؤتمر السادس (١٩٢٤).

غير أن جملة أمور رفعت منسوب السخط الشعبى عام ١٩٢٨ فكان هجوم الجراد وتفشى وباء الطاعون، ووصول الركود الاقتصادى إلى البلاد، سابقًا العالم كله بعام، وامتداده فى فلسطين زهاء خمس سنوات متصلة (١٩٢٨ - ١٩٣٢)، ناهيك عن توسع «الوكالة اليهودية» القيادة السياسية للصهاينة، وتوالى تسرب الأراضى من بين أصابع الفلاحين العرب الفلسطينيين وارتفاع منسوب البطالة فى أوساط العمال العرب الفلسطينيين، حيث كانت هذه البطالة وذلك التسرب بفعل تشريعات الانتداب وإجراءاته، فضلًا على موجات الهجرة اليهودية التى تدفقت إلى فلسطين.

كانت البداية انعقاد المؤتمر الوطنى السابع(٢٠و٢١/ ٦/ ١٩٢٨)، بعد انقطاع خمس سنوات متصلة، وفيه اقتسمت الثورة المضادة مع الوطنيين مقاعد «اللجنة التنفيذية العربية» التى أخذت على عاتقها قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية فيما بين مؤتمرين، بل إن المؤتمر كاد يتخذ قرارًا بقبول «حكومة وطنية فى ظل الاحتلال»[٨].

فى «عيد كيبور» (١٥/ ٨/ ١٩٢٩) هتفت جمهرة صهيونية فى القدس «الحائط حائطنا»! فى إشارة إلى «حائط البراق»، الذى يقدسه المسلمون لأن الرسول الكريم(ﷺ) ربط البراق عنده، عندما صعد إلى السماء، فيما يزعم اليهود أن ذاك الحائط هو المتبقى من هيكل سليمان؛ لذا يطلقون عليه اسم «حائط الهيكل».

استفزت الهتافات الصهيونية مشاعر المسلمين، فخرجوا من صلاة الجمعة(١٦/ ٨/ ١٩٢٩) فى المسجد الأقصى بالقدس، فى مظاهرة حاشدة اصطدمت بحشود من اليهود الاستفزازيين. فكانت «هبَّة البراق» التى فاقت الصدامات الثلاثة السابقة فى قوتها، وامتدادها المكاني(القدس، الخليل، وصفد)، والزمانى (أسبوعين)، وحجم الخسائر البشرية (مقتل ١٣٣يهوديًّا، وجرح ٣٣٩ آخرين، مقابل قتل١١٦، وجرح ٢٣٢). فيما ألقى القبض على أكثر من ألف شخص تسعة أعشارهم من العرب الفلسطينيين[٩].

تكمن الأهمية التاريخية لهذه الهبَّة فى إنهائها مرحلة، وابتدائها أخرى فى حياة الحركة الوطنية الفلسطينية، **أولًا**: بعد أن تأكد لكل ذى عينين أن أشكال الكفاح التى فرضتها القيادة التقليدية للحركة الوطنية على جماهيرها كانت دون المستوى المطلوب فى المواجهة مع الأعداء؛ **وثانيًا**: بعد أن سقط قناع «الحَكَم» عن وجه الإنجليز، وتجلى تحيُّزهم للصهاينة، بالقول، والموقف، والسلاح؛ **وثالثًا**: بعد أن شبَّت البرجوازية العربية الفلسطينية عن الطوق، فتهيأت للدخول شريكًا صغيرًا فى قيادة الحركة الوطنية. لكن هذا الشريك الصغير حقق حضورًا فاق حجمه، أضعاف المرات؛ **أولًا**: بعد آن تجلى إفلاس البرنامج السياسى لكبار الملاك، **وثانيًا**: لأن البرجوازية حملت، آنذاك، برنامجًا ثوريًّا، يتفق ومصالحها، وهى الطبقة الوليدة، بلا أسنان أو مخالب، وهى الرازحة تحت نير عدو مزدوج (الاستعمار البريطانى، والصهيونية)، فضلًا على أنها مقطوعة الصلة بالسوق الرأسمالية العالمية، ناهيك عن توقها للاستقلال بسوقها المحلية. ما أهَّل تلك البرجوازية للاستقواء بالحركتين العمالية الفلاحية، الفتيتين، والنافرتين من كبار الملاك وبرامجهم، والمعانيتين من نير الانتداب والصهيونية، أضعاف ما كانت تعانيه بقية الطبقات والفئات الاجتماعية العربية الفلسطينية من هذين العدوين.

اللافت أن نفور الفلاحين من برنامج كبار الملاك، المتزايد فى اطراد أفضى إلى تشكيل فلاحين لعصابة «الكف الأخضر»، التى اتخذت من اغتيال الإنجليز والصهاينة أسلوبًا للانتقام[١٠].

عند هذا الحد، طلب الساعد الأيمن للقسام، أبو إبراهيم الكبير(خليل محمد عيسي)، من قائده توظيف هذا كله، وإعلان الثورة المسلحة، لكن القسام طلب منه التريث؛ فلم يكن تنظيم القسام قد استكمل استعداداته فى السلاح، والتدريب، والعدد، كما لم تكن الجماهير الفلسطينية قد أدارت ظهرها، تمامًا، للقيادة التقليدية للحركة الوطنية. واختلفت المراجع

فى رصد رد فعل أبى إبراهيم الكبير، فمن قائل بأنه استنكف، والتزم البيت، ومن قائل بأنه انشق عن التنظيم، غاضبًا مستاءً من تلكؤ القسام[١١]. فيما نفى هو نفسه أيًا من الاستنكاف، أو الانشقاق[١٢].

حملت الثلاثينيات الحركة الوطنية من التخبط إلى انفتاح الرؤية، حيث غدا الاستعمار البريطانى «أُس البلاء»، والصهيونية مجرد ذيل له، واعتمدت أساليب كفاح تصاعدية ضد هذين العدوين، وانحسر نفوذ كبار الملاك، نسبيًا، دون أن ينتهى. وعبر اشتداد عود البرجوازية العربية الفلسطينية، فى غير مجال؛ اقتصاديًا تأسست البنوك (البنك العربى [١٩٣٠]، والبنك الزراعى والصناعى العربى [١٩٣٣])، وسياسيًا تمكنت تجمعات جماهيرية محسوبة على البرجوازية من عقد مؤتمراتها لأول مرة؛ فانعقد فى القدس فيما بين ١٢-١٤/ ١١/ ١٩٢٧، مؤتمر للصحفيين، تمخض فنتج عنه قرارات سياسية متقدمة، تختلف فى الدعوة إلى الوحدة الوطنية، وانعقاد المؤتمر الوطنى الفلسطينى السابع، ومقاومة النعرات الطائفية. أما المؤتمر الأول للطلاب، فقد امتطاه أبناء الأعيان من طلبة الجامعة الأمريكية فى بيروت، وفرضوا عليه رؤيتهم، فكانت قراراته(١٢/ ٩/ ١٩٢٩)، أقرب إلى جناح كبار الملاك الذين لم يستسلموا أمام التقدم المطرد لبرنامج البرجوازية، فحثوا قريناتهم من النساء على عقد مؤتمر للحركة النسائية، انعقد فعلًا فى القدس فى ١٩/ ١٠/ ١٩٢٩، وانتهى إلى تنظيم مظاهرة بستين سيارة فارهة، طافت شوارع القدس، وتوسلت إلى المندوب السامى البريطانى، كى يعفوا عمن أدانتهم المحاكم الانتدابية من الثوريين العرب الفلسطينيين. أما رجال الأعمال العرب الفلسطينيون، فعقدوا موتمرًا اقتصاديًا، فى ١٤/ ١١/ ١٩٢٩، احتج على الحماية الجمركية للصناعات اليهودية فى فلسطين، ودعا إلى تأليف شركة وطنية، لتنشيط الزراعة، والصناعة، والتجارة الوطنية. كما طالب المؤتمر بتأسيس بنك زراعى، وإنجاز مشروع «بنك مصر ـ فلسطين». وسياسيًا، أيد المؤتمر «مطالب الأمة العربية الفلسطينية السياسية»[١٣].

فى الوقت الذى نجح فيه العمال العرب الفلسطينيون - بدعم الحزب الشيوعي- فى عقد مؤتمرهم الأول، مطلع ١٩٣٠، فكان الأول فى أرجاء الوطن العربى. وتمخض المؤتمر فنتج عنه قرارات مهمة، مثل: الاحتجاج على منح حكومة الانتداب امتياز البحر الميت لشركات أجنبية، فيما دعا المؤتمر إلى العمل على حماية العامل، وإيجاد عيادات

طبية مجانية له، والعمل «لمصلحة الوطن، الاشتراك فى كل أمر لا يتنافى مع مصالح العمال ومطالبهم». والاحتجاج لدى حكومة الانتداب على الغرامات التى فرضتها، والقوانين التى سنتها، والهجرة اليهودية التى سهَّلتها، والصحافة التى خنقتها. وشدد المؤتمر على «استقلال فلسطين، استقلالاً تامًّا، ضمن الوحدة العربية»، والإفراج عن المعتقلين السياسيين[١٤].

فيما نهضت الحركة الفلاحية بعد ارتفاع وتائر اقتلاع الفلاحين من الأرض، لحساب الصهاينة ومؤسساتهم. ففى ٣٠/ ١١/ ١٩٢٩، اقتُلع فلاحو «وادى الحوارث» (٢٥٤٦أسرة)، شمال شرق فلسطين، من الأراضى التى كانوا يفلحونها هناك (نحو ألف دونم)، بعد أن باعها ملاكها من آل التيان (للبنانيين)، بسبب حرمان حكومة الانتداب البريطانى العرب غير الفلسطينيين من تملك أراضٍ فى فلسطين، واتضح أن آل التيان كانوا قد رهنوا تلك الأرض ليهود! أما فلاحو مرج ابن عامر فقد اقتلعوا (١٩٢٠) من الأراضى التى كانوا يزرعونها (نحو ٨٠ ألف دونم)، بعد أن باعتها عائلة سرسق اللبنانية، بثمن بخس، ألحقوها بخمس قرى، قرب يافا (نحو ٢٣٠ألف دونم)، فى ١/ ٨/ ١٩٢٤[١٥].

عاشت القيادة الوطنية الفلسطينية، غداة هبَّة البراق، أيام شد وجذب بين تياريها؛ المهاود الذى يمثله كبار الملاك، والثورى الذى تُعبر عنه البرجوازية الفتية. إلى أن وصل أدولف هتلر إلى الحكم فى ألمانيا، مطلع ١٩٣٣، فارتفع منسوب الهجرة اليهودية، المتدفقة إلى فلسطين على نحو غير مسبوق؛ مما زاد الاحتقان الشعبى العربى الفلسطينى. ويظهر الجدول التالى منحنى الهجرة اليهودية إلى فلسطين، خلال سنوات الاحتلال البريطانى، وحتى سنة ١٩٣٥.

موجات الهجرات إلى فلسطين[١٦]

الفترة	حجم الهجرة
١٩٢١ - ١٩٢٥	٦٠,٧٦٥
١٩٢٦ - ١٩٣٠	١٠,١٧٩
١٩٣١ - ١٩٣٥	١٤٧,٥٠٢
المجموع	٢١٨,٤٤٦

بعد أن كانت الموجة الأولى إلى فلسطين، غطت سنوات ١٨٨٢ - ١٩٠٣، وضمَّت نحو

ثلاثة آلاف يهودى، هربوا من الاضطهاد القيصرى لهم فى روسيا، بعد أن اشتركت عناصر يهودية روسية فى اغتيال قيصر روسيا، ألكسندر الثانى (١٨٨١)، فيما اقترب رقم الموجة الثانية ١٩٠٤-١٩١٤ من الأربعين ألف مهاجر، معظمهم صهاينة، اضطهدتهم السلطات القيصرية فى روسيا بعد أحداث ١٩٠٤- ١٩٠٥ الثورية.

نأتى إلى أرقام الجدول، التى فاقت الستين ألفًا، فى النصف الأول من العشرينيات، التى قضاها الصهيونى البريطانى العريق، هربت صموئيل مندوبًا على فلسطين، مع ما اقترن بعصره من محاباة على المكشوف للصهيونية، فى الإجراءات، والتشريعات، فى شتى المجالات. لكن المنحنى عاد وهبط إلى نحو سُدس الرقم السابق عليه، **أولًا** بفعل تعثر المشروع الصهيونى فى فلسطين، وثانيًا تحت ضغط الضائقة الاقتصادية التى أخذت بخناق فلسطين مبكرة عامًا كاملًا عن الأزمة الاقتصادية العالمية، فغطت فلسطين ما بين ١٩٢٨- ١٩٣٢. حتى سنوات تلك الضائقة شهدت ارتفاعًا ملحوظًا فى الهجرة اليهودية من فلسطين، تجاوزت ستة آلاف يهودى. فيما توقفت تلك الهجرة المضادة، ابتداءً من عام ١٩٣٢، وقد وصل فلسطين، فى السنة المذكورة؛ ٩,٥٥٣، وارتفع الرقم، فى العام التالى، إلى ٣٠,٣٢٧، وقفز إلى ٤٢,٣٥٩ يهوديًا، فى العام ١٩٣٤، وإلى ٦١,٨٥، فى عام ١٩٣٥[١٧].

تداعى الشباب العربى الفلسطينى إلى مؤتمر يناقش الخطر الصهيونى المتزايد، ومحاباة الانتداب للصهيونية. فاستجاب بعض أعضاء «اللجنة التنفيذية العربية» لمطلب الشباب، ودعوا إلى اجتماع عام فى دار اللجنة بالقدس، يوم ٢٤/ ٢/ ١٩٣٣، وحضره ٧٠ مندوبًا، من شتى أنحاء فلسطين، مثلوا التيارين الرئيسيين فى قيادة الحركة الوطنية، وافتتح رئيس اللجنة التنفيذية، موسى باشا كاظم الحسينى الاجتماع، مؤكدًا أنه «للمشاركة فى الرأي»، تلاه عونى عبد الهادى، الذى تحدث عن الهجرة، وانتقال الأراضى للمستوطنين اليهود ومؤسساتهم. فيما نوَّه الشيخ عبد القادر المظفَّر بأن «الخطط السلبية لا تفيد»، فى الوقت الذى دعا فيه جمال الحسينى إلى تطهير الصفوف من السماسرة. واقترح عمر الصالح البرغوثى، ومحمود الدجانى الامتناع عن دفع الضرائب، فيما تقدم قطب الثورة المضادة فخرى النشاشيبى باقتراح مؤداه البدء بالعصيان المدنى، ما دام الكلام ليس عليه جمرك! انتهى الاجتماع إلى تشكيل وفد، برئاسة موسى كاظم، لمقابلة المندوب السامى، وتقديم

مذكرة له، ضد سياسة حكومة الانتداب فى الهجرة وانتقال الأراضى، والمطالبة؛ بسد باب الهجرة، ومنع انتقال الأراضى للمستوطنين اليهود، وامتناع السياسيين العرب الفلسطينيين عن حضور الحفلات التى يقيمها مسؤولو الانتداب. وإذا لم يستجب المندوب السامى، فثمة اجتماع آخر للنظر فى البديل.

أما المندوب السامى فرد بأنه ملتزم بصك الانتداب، وبالتالى لا يستطيع وقف الهجرة وانتقال الأراضى. وعلية تقرر عقد اجتماع آخر فى يافا، يوم ٢٦/ ٣. وقبل أربعة أيام من الاجتماع أصدر موسى باشا بيانًا، أكد فيه أن حكومة الانتداب تعمل على إجلاء الشعب العربى الفلسطينى عن بلاده، وإحلال غرباء محله. ودعا الحسينى إلى التخلص من الخصم البريطانى «بكل طريقة مشروعة!»[١٨].

فى الموعد المضروب التقى نحو ٦٠٠ عربى فلسطينى، وإن تغيب رأس الثورة المضادة، راغب بك النشاشيبى. واقترح عبد الغنى سنان استقالة رئيس المجلس الإسلامى الأعلى، ورئيس بلدية القدس، وغيرهما. فرد عضو المجلس الإسلامى الشيخ صبرى عابدين؛ برفض إقحام الوظائف الدينية فى الاستقالات! وأشار الخطباء إلى سياسة اللا تعاون فى كل من مصر والهند. واقترح راغب الدجانى تشكيل لجنة لدراسة مسألة المقاطعة وشدد أحمد الشقيرى على ضرورة استقالة الحاج أمين الحسينى، رئيس المجلس الإسلامى، وراغب النشاشيبى من رئاسة بلدية القدس. وفاجأ رئيس بلدية يافا، عاصم السعيد، المؤتمر بأن راغب النشاشيبى هاتفه معلنًا استعداده للاستقالة «إذا أقرتها الأمة»! فيما وقف الحاج أمين الحسينى، ورفض «التورط» فى الاستقالة![١٩].

بعد انسحاب أنصار النشاشيبى وافق الاجتماع على «اللاتعاون الاجتماعى»؛ أى مقاطعة الحفلات، والمجاملات مع الحكومة! كما وافق الاجتماع على مقاطعة البضائع الإنجليزية والصهيونية. وعلى أن تقوم لجنة على متابعة تنفيذ هذا كله تضم أعضاء مكتب اللجنة التنفيذية، وعضوًا واحدًا عن كل حزب(*)، على أن تقدم تقريرها بعد شهرين. بيد أن هذه

(*) جاء ترتيب تلك الأحزاب، من حيث تاريخ التأسيس، على النحو التالي:

١- **مؤتمر الشباب العربى الفلسطينى**، تأسس فى يناير/ كانون الثانى ١٩٣٢، وترأسه راسم الخالدى، وخلفه يعقوب الغصن.

٢- **حزب الاستقلال العربى**، تأسس صيف ١٩٣٢، وترأسه عونى عبد الهادى.

٣- **حزب الدفاع الوطنى**، تأسس فى ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٤، وترأسه راغب النشاشيبى. =

اللجنة لم تتعد الحبر على الورق، وبالتالى تم قبر فكرة «اللاتعاون» قبل أن تولد! فيما نفَّذ الشعب نفسه اللاتعاون ذاك[٢٠].

فى الوقت الذى تزايد فيه الخطر المحدق بفلسطين، مع ارتفاع منسوب الهجرة، ومعها منسوب الأراضى المتسربة إلى المستوطنين اليهود ومؤسساتهم، فإن الحاج أمين الحسينى اختار أن يشكل وفدًا إسلاميًّا طاف الأقطار الإسلامية لاستجداء معونات من أجل عمارة المسجد الأقصى! فيما صبَّت الصحف الوطنية جام غضبها على حكومة الانتداب لمحاباتها الصهيونية فى الهجرة وانتقال الأراضي[٢١].

حين أحست «اللجنة التنفيذية العربية» بأن زمام الموقف بدأ يفلت من بين يديها التأمت وقررت تنظيم مظاهرات فى المدن الفلسطينية على التوالى، وبدون إذن السلطات. وفى يوم ١٣/ ٩/ ١٩٣٣، نظمت مظاهرة القدس، التى تصدرها زعماء البلاد، لكن الشرطة قمعت تلك المظاهرة، وقدمت بعض المتظاهرين للمحاكمة، فيما تمكن الأعيان من إخلاء سبيل أبنائهم دون محاكمة![٢٢]

توالت المذكرات على المندوب السامى تحذر من مغبة الاستمرار فى محاباة الصهاينة. وشارك فى تلك المذكرات «مؤتمر الشباب العربي»، وعدد من وطنيى نابلس. فيما توالت اجتماعات «اللجنة التنفيذية العربية»، يوم ٨/ ١٠، فى محاولة يائسة للخروج من المأزق. وانتهى الاجتماع الثانى إلى دعوة الأمة للإضراب يوم ١٣/ ١٠، ترافقه مظاهرة فى القدس يتقدمها موسى كاظم، وأعضاء اللجنة التنفيذية. واللافت أن مقررات اللجنة وعدت بالعدول عن سياسة الاحتجاج والخطب، وأن «عرب فلسطين قد يئسوا، يأسًا تامًّا من الحكومة»[٢٣]، إنه منطق «ما كانش العشم»!

فى ٩/ ١٠ ذكَّرت سلطات الانتداب اللجنة التنفيذية بأن البوليس سيقمع المظاهرة استنادًا إلى القانون! وفى اليوم التالى، قابل وفد اللجنة التنفيذية - برئاسة موسى كاظم- القائم بأعمال المندوب السامى الذى وعدهم بنقل مطالبهم إلى المندوب السامى عند عودته إلى البلاد[٢٤].

= ٤- الحزب العربى الفلسطينى، تأسس فى مارس/ آذار ١٩٣٥، وترأسه جمال الحسينى.
٥- الإصلاح، تأسس فى يونيه/ حزيران ١٩٣٥، وترأسه حسن فخرى الشاشيبى.
٦- الكتلة الوطنية، تأسس فى أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٥، وترأسه عبد اللطيف صلاح.
(خلة، مصدر سبق ذكره، ص ٥١٣- ٥٢٢، ٥٦٣- ٥٦٥، ٥٧٣- ٥٧٨).

فى الموعد المحدد انطلقت المظاهرة فى القدس، بالرغم من تحذيرات الانتداب، وقد فرَّقها البوليس بالقوة. ما حدا باللجنة التنفيذية للالتئام، وتحديد ٢٧/ ١٠ يومًا للإضراب والتظاهر فى يافا، وقدم وفدان من سوريا وشرقى الأردن للمشاركة فى مظاهرة يافا، خاصة أن ميناء تل أبيب اليهودى كان سيفتتح آخر الشهر نفسه، مع كل ما سيترتب عليه من آثار كارثية على ميناء يافا العربى وعماله. وكانت مظاهرة يافا هذه بداية انتفاضة أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٣، التى فاقت كل ما سبقها من صدامات وهبَّة فى قوتها، وفى امتدادها المكانى والزمانى، وفى توجيه الحركة الوطنية ضربتها الرئيسية إلى الإنجليز، وفى مدى الخسائر البشرية[٢٥].

قبل يومين من موعد المظاهرة ترأس موسى كاظم وفدًا من اللجنة التنفيذية قابل المندوب السامى الذى أخبرهم بأنه لا يسمح بالتظاهر، ونصحهم بتقديم مذكرة إلى دار الحكومة فى يافا! وشرح كاظم للمندوب السامى أسباب اضطرار اللجنة التنفيذية للجوء إلى التظاهرات السلمية. وفى مقدمة تلك الأسباب الضغط الشعبى، فيما أحرجت حكومة الانتداب اللجنة التنفيذية، بدل أن تنقذها![٢٦]

وفى يوم الإضراب (٢٧/ ١٠) خرج المصلون من جامع حسن بك بحى المنشية فى يافا بما يربو على سبعة آلاف متظاهر متوجهين إلى دار الحكومة، فتصدت لهم قوات هائلة من الشرطة، وحرس الحدود، والفرسان، والقنَّاصة المدججين بالسلاح والمحتمين بالمدرعات. وتحولت شوارع يافا إلى ساحة حرب حتى الرابعة من مساء اليوم نفسه. فأعلنت سلطات الانتداب الطوارئ فى يافا[٢٧].

فى اليوم التالى نظمت مظاهرة مماثلة فى حيفا ضمت زهاء ألفى متظاهر، حاولوا احتلال محطة سكة الحديد، ومركز البوليس الرئيسى، وفى اليوم نفسه تظاهر نحو ثلاثة آلاف فى نابلس، حاولوا احتلال محطة سكة الحديد وضرب «بنك باركليز» البريطانى. واشتعلت المظاهرات فى القدس، يومي٢٨و٢٩/ ١٠، ومعها الصدامات الدامية، وأقفل المتظاهرون المحلات اليهودية، ونظمت قوات الجيش والبوليس مجزرة دموية فى القدس القديمة. وفى الليل أُطلقت النار على مبنى الحكومة. وتوالت المظاهرات الصدامية فى كل من غزة، وعكا، وطولكرم. فأصدرت حكومة الانتداب قانون الطوارئ فى ٣٠/ ١٠، واستقدمت نجدات عسكرية من قواتها فى مصر وشرق الأردن. وفرضت الرقابة على الصحف،

فاحتجبت احتجاجًا، ومنعت الحكومة نفسها الاحتفال بدفن الشهداء، فعاندتها الجماهير، فيما استمر الإضراب السياسى العام حتى ٣/ ١١، وقد جاء توقفه بقرار من «اللجنة التنفيذية العربية»[٢٨].

فى الانتفاضة المذكورة، قُتل رجل بوليس واحد، وأصيب ٢٦ آخرون، فيما قُتل ٢٦عربيًا فلسطينيًا، وجُرح نحو ١٨٧آخرون. واللافت للنظر أن يهوديًا واحدًا لم يصب فى الانتفاضة[٢٩] كل هذا بينما سماحة مفتى القدس الأكبر الحاج أمين الحسينى يجمع الأموال لإعمار الأقصى، تاركًا قادة البلاد لحيرتهم وحرجهم!

إذا كانت عصبة «الكف الأخضر» قد جاءت لرفض أداء اللجنة التنفيذية، فإن عصابة أبو جلدة جاءت فى سياق آخر.

أبو جلدة هذا هو أحمد المحمود، من قرية الطمُّون، شمال شرق نابلس، تنازع مع بعض أقاربه، وانتهى النزاع بمقتل ثلاثة منهم، فألقى القبض على أبو جلدة، وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، لكنه تمكن من الهروب، وأصبح خارجًا على القانون، وسرعان ما التف حوله عدد من المطاريد، أهمهم صالح أحمد المصطفى(الشهير بالعرميط)، من قرية بيتا، جنوب نابلس.[٣٠]

بدأ أبو جلدة نشاط عصابته، فى منطقتى نابلس، والجليل الوعرتين، منذ صيف ١٩٣٣، ودعا إلى مقاومة حكومة الانتداب.لكن أحد أفراد عصابته وقع فى قبضة أجهزة أمن الانتداب فى ٢٥/ ٩/ ١٩٣٣، فيما شاركت عصابة أبو جلدة، بجهدٍ مجدٍ، فى انتفاضة أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٣. حيث قاد هجومًا برجاله، على مركز بوليس، وقَتل جنديين. وفى صيف ١٩٣٤ تمكنت أجهزة أمن الانتداب من إلقاء القبض على أبى جلدة والعرميط، وقضت محكمة انتدابية بإعدامهما، وقد كان. فيما وجد محمود أبو حبرون(من وشى بأبى جلدة ورفيقه) مذبوحًا فى منزله![٣١]

يبدو أن تخويف كبار الملاك لجماهير الشعب مما جرى لها فى انتفاضة أكتوبر/ تشرين الأول قد آتى أكله، كما أن الجناح الثورى فى قيادة الحركة كف عن المطالبة بالمظاهرات الصدامية، فقررت «اللجنة التنفيذية العربية» فى اجتماعها، مطلع يناير/ كانون الثانى ١٩٣٤، القيام بمظاهرات سلمية، بعد الحصول على تصريح من سلطات الانتداب، فى أول أيام عيد الفطر(١٧/ ١/ ١٩٣٤)[٣٢]. ولم يكن غريبًا أن توافق سلطات الانتداب على تنظيم تلك المظاهرات، وإن حددت تلك السلطات خط سير كل مظاهرة.

فى ١٦/ ٣/ ١٩٣٤، توفى موسى كاظم باشا، متأثرًا بالجراح التى أصابته فى مظاهرة (٢٧/ ١٠/ ١٩٣٣)، ومعه غابت، تمامًا، «اللجنة التنفيذية العربية».

فى ١٣/ ٧/ ١٩٣٤، قررت قيادة «مؤتمر الشباب» تشكيل مجموعات لحراسة الحدود والسواحل الفلسطينية، فى سبيل التصدى للهجرات اليهودية السرية، التى بلغ متوسطها السنوى نحو١,٥٠٠مهاجر يهودى. وقرب مستوطنة ناتانيا، نشب اشتباك بين إحدى هذه المجموعات وعصابة صهيونية مسلحة، سقط فيها ثمانية من الجانب العربى (١٧/ ٩/ ١٩٣٤) فأصدر المندوب السامى بلاغًا اعتبر فيه مجموعات الحراسة العربية مشوشة على جهود الإنجليز لمنع الهجرة السرية! وتعهد المندوب السامى بالقيام بهذه المهمة نيابة عن المجموعات العربية! وسرعان ما شكل العمال العرب الفلسطينيون حاميات لمنع الصهاينة من تنفيذ «العمل العربي»، و«احتلال العمل»[٣٣].

باختصار اتضح أن عام ١٩٣٤ تميَّز بهدوء نسبى عن العام الذى سبقه، وكأن سلطات الانتداب نجحت فى احتواء الحركة الوطنية وترجيح كفة كبار الملاك فى قيادتها، ولكن إلى حين.

فى ١٦/ ١٠/ ١٩٣٥ سقط برميل من الأسمنت، وارد ضمن ٧٣ برميلًا من بلجيكا إلى الصهاينة فى تل أبيب، عبر ميناء يافا العربى، فتناثرت منه قطع الأسلحة؛ ما دفع عمال الميناء العرب إلى إعلان الإضراب، فيما عاد الاحتقان الشعبى إلى ما كان عليه فى انتفاضة١٩٣٣[٣٤].

وجه الرأس الجديد للحركة الوطنية، مفتى القدس الحاج أمين الحسينى دعوة إلى الأحزاب كى تأتلف، فتشكلت فى ٢١/ ١٠ «لجنة الأحزاب الفلسطينية»، فيما عدا «الاستقلال» الذى كان جمد نشاطه، منذ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٣. وتقدمت اللجنة الوليدة إلى المندوب السامى بمذكرة فى ٢٣/ ١٠ طالبته فيها بمصادرة السلاح المضبوط، واتخاذ التدابير اللازمة لمنع تهريب السلاح مستقبلًا. وفى ٢٦/ ١٠ أضربت البلاد إضرابًا شاملًا، رغم منع سلطات الانتداب[٣٥].

هكذا تكون الشروط الموضوعية قد نضجت لإطلاق حركة القسام الثورية:

- **فالجماهير الشعبية فى ذروة استعدادها للتضحية** فى سبيل وطنها، وفى وجه عدوها

المزدوج، البريطاني- الصهيونى. بعد أن سأمت تلك الجماهير من تردد قيادة الحركة الوطنية، التى توزعت إلى تيارين، مثل أولهما كبار الملاك (أصحاب المصالح الحقيقية)، وهو تيار مهاود للإنجليز، أما التيار الأخير فثورى محدود، وصل أقصاه بالمظاهرات الصدامية ودعوات مقاطعة حفلات الانتداب. وقد جاء حادث ميناء يافا ليصب المزيد من الزيت على الاحتقان الشعبى العربى الفلسطينى.

- **والصهيونية مرتبكة، منقسمة على نفسها**، بعد انشقاق فلاديمير جابوتنسكى على الحركة الصهيونية (١٩٣١)، التى اتهمها بالتباطؤ فى تنفيذ المشروع الصهيونى. ووصل الأمر بقيادة الحركة الصهيونية إلى أن قتلت الرجل الثانى فيها، حايم أورلوزوروف (١٩٣٣)، لمجرد أنه نادى بعدم إقامة المشروع الصهيونى إلا عبر التفاهم مع الشعب العربى الفلسطينى.
- **والانتداب البريطانى بدا عاجزًا عن إدارة البلاد بالأساليب التقليدية**، وقد فاجأته حركة الجماهير العربية الفلسطينية بقوتها، واندفاعها، فى وقت فاقم غزو القوات الإيطالية للحبشة صيف ١٩٣٥ من مأزق الانتداب فى فلسطين.
- **أما الشرط الذاتى فكان فى مستوى يؤهل القسام لتفجير حركته الثورية**؛ بعد أن نجح فى تجنيد نحو ٢٠٠ عضو، عبأهم معنويًا، ودربهم على السلاح، فيما توفر لدى القسام ما يربو على ١٠٠ بندقية، والكثير من الذخيرة. لذا اجتمعت قيادة حركة القسام فى ١٢/ ١١/ ١٩٣٥، وقررت الخروج بنحو عشرين رجلًا إلى أحراش يعبد، حيث المنطقة الوعرة، وقبضة أمن الانتداب المتراخية، وجماهير الفلاحين المحتقنة، بما يزيد على غيرها من الطبقات والفئات الاجتماعية.

***

هوامش الفصل الثاني

(١) انظر:

- كامل محمود خلة، **الانتداب البريطاني وفلسطين ١٩٢٢-١٩٣٩**، ط٢، طرابلس - ليبيا، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٢،ص ٢٠٠-٣٠٣.

- عادل حسن غنيم، **الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧ إلى ١٩٣٦**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص٣٥-٣٧.

(٢) انظر:

- عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨**،ط١،بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٥، ص٣٣- ٣٨.

- غنيم، **مصدر سبق ذكره**، ص٣١-٣٤، ٦٢، ١٥٦-١٦٠.

- خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٠٢- ٢١٩.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ١٢٩-١٣١، ١٥٣-١٧١.

(٤) **المصدر نفسه**، ص٢٣٤-٢٦٢.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٢٥٦-٢٦٢.

(٦) غنيم، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٦- ٩٨.

(٧) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٣.

(٨) محمد عزة دروزة، **حول الحركة العربية الحديثة**، الجزء الثالث، صيدا، المكتبة العصرية،١٩٥١، ص٩٥- ٦٠.

(٩) لمزيد من التفاصيل حول هذه الهبَّة، يمكن الرجوع إلى:

- خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٥١- ٤٦٠.

- ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩١- ١١٢.

- غنيم، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٥- ١٧٨.

(١٠) للمزيد عن عصابة «الكف الأخضر» يمكن الرجوع إلى:

- عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، ط١، بيروت، مؤسسة الدراسات العربية ١٩٧٠، ص ٢٥٢- ٢٥٤.

(١١) صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٧، ص ٣٥.

(١٢) أبو إبراهيم الكبير، في: **الثورة الفلسطينية**، دمشق، العدد التاسع عشر، ١٥/ ٩/ ١٩٦٩.

(١٣) للمزيد من التفاصيل، يمكن العودة إلى:

- خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٧٢.

- عبد القادر ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٦، ١٢٢.

- نبيل بدران، **التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني**، الجزء الأول، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٩، ص٣٠٤-٣٠٥.

(١٤) عبد القادر ياسين، **تاريخ الطبقة العاملة الفلسطينية ١٩١٨- ١٩٤٨**، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٨٠، ص١٢٦- ١٢٧.

(١٥) خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٦٢-٧٦٥.

(١٦) وليم فهمي، **الهجرة اليهودية إلى فلسطين**، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص٣٦ - ٣٧.

(١٧) **المصدر نفسه**، ص ٥٤.

(١٨) عبد الوهاب الكيالي(إعداد)، **وثائق المقاومة العربية الفلسطينية ضد الاحتلال والصهيونية (١٩١٨- ١٩٣٩)**، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٨، ص٣٠٥- ٣١٧.

(١٩) **المصدر نفسه**، ص ٣٢٠- ٣٢٨.

(٢٠) **المصدر نفسه**، ص ٣٢٨- ٣٣٢.

(٢١) خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٤٧- ٥٤٨.

(٢٢) انظر:

- **المصدر نفسه**، ص ٥٣٣- ٥٣٤.

- **المقاومة الفلسطينية الواقع والتوقعات**، بيروت، دار الطليعة، كتاب خاص عن مجلة «دراسات عربية»، يوليو / تموز ١٩٧١. (انظر: فلاديمير لوتسكي، **الإمبريالية الإنجليزية وثورة تشرين الأول١٩٣٣ في فلسطين**، ترجمة رياض يونس، ص ٢٧- ٣٠.

(٢٣) خلة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣٦.

(٢٤) **المصدر نفسه**، ص ٥٣٧.

(٢٥) انظر:

- **المصدر نفسه**، ص ٥٤١.

- غنيم، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٥٧.

(٢٦) خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٤١.

(٢٧) انظر:

- **المصدر نفسه**، ص ٥٤١- ٤٤٢.

- غنيم، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٦٠- ٢٦٢.

(٢٨) انظر:

- **المصدر نفسه**، ص ٢٥٣، ٢٦٠- ٢٦١.

- خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٤٢- ٥٤٣.

(٢٩) انظر:

- **المصدر نفسه**، ص ٥٤٤.

- غنيم، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٦٢.

(٣٠) حول ملابسات تشكيل «عصابة أبو جلدة»، وأعمالها، ومصيرها، يمكن الرجوع إلى:

- خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٤٥- ٤٤٧.

- هارون هاشم رشيد، **أبو جلدة والعرميط ياما كسَّروا برانيط**، ط١، عمان، دار مجدلاوى، ٢٠٠٦.

- د.ر. فوبليكوف، **تاريخ الأقطار العربية المعاصر**، م١، موسكو، دار التقدم، ١٩٧٥، ص٢٢٣.

- نظام عزت العباسى، **السياسة الداخلية للحركة الوطنية الفلسطينية**،إربد، دار هشام للنشر والتوزيع، ١٩٨٤، ص ١١١- ١١٥.

(٣١) خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٤٧.

(٣٢) **المصدر نفسه**، ص ٥٤٨- ٥٤٩.

(٣٣) **المصدر نفسه**، ص ٥٥٠- ٥٥١.

(٣٤) **المصدر نفسه**، ص ٥٧٨- ٥٧٩.

(٣٥) **المصدر نفسه**، ص ٥٧٩- ٥٨٠.